

الدرس الثالث



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

شروط الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

❖ أولاً: الإخلاص.

- فالدَّاعي إلى الله -سبحانه وتعالى- لابدَّ أن يكون مُخلصاً، قاصداً وجه الله -سبحانه وتعالى- تجرَّد لهذا العمل وأقام هذه الشَّعيرة، وفعل هذه السُّنة وتخلَّى عن كثيرٍ من رغباته وأمورٍ نفسه، كلُّه لله -سبحانه وتعالى.
- إذا أردنا أن نستدلَّ على هذا المعنى، فأوَّل ما يُمكن أن نستدلَّ به على أنَّها عبادة وأنَّ كلَّ عبادةٍ لا تصحُّ إلا بنِّيَّة، هو قول الله -جل جلاله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5].
- فمَن قال -على سبيل المثال: قُم إلى الصَّلَاة، لكنَّه ما كان مخلصاً وإنَّما أراد أن يخلو له المكان أو يتخلَّص من ذلك الجالس، فإنَّه لم يأمر بخيرٍ ولم يدعُ إلى الله ولم يُحثَّ على طاعة.
- فلا بدَّ إذن أن يكون الذي يدعو إلى الله -جل جلاله- مخلصاً لله، قاصداً وجه الله -سبحانه وتعالى- مُتخلصاً من كلِّ حظوظ النَّفس ورغباتها، والتفات القلب وتوجُّهاته، وأصل ذلك حديث عمر-رضي الله تعالى عنه: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصَيِّبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»

١ صحيح البخاري (1).

- إذن هذا دليلٌ أيضًا على أمر الإخلاص، وهذا يتناول جميع الأعمال، لكن إذا دققنا قليلًا أو خُصنًا فيما يتعلق بأدلة الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- فستجد أنها أخصُّ في الدَّلالة على هذه الشَّعيرة، لأهميَّة وجود الإخلاص فيها. قل على سبيل المثال: قول الله -جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، ولذلك قال الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- عند ذكر هذه الآية في باب الدعاء إلى شهادة "أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" قال: "الدَّاعِيَّةُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى نَفْسِهِ"، فتنبه وهذا كلام عظيم. وانظر في آيات كثيرة في الدَّعوة إلى الله -جلَّ جلاله- ستجدها لا تنفك من الإشارة إلى هذا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

- يتنبه الدَّاعي إلى أَنَّهُ لا بدَّ أن تكون دعوته خالصةً مخلصَةً مِنْ كُلِّ هَوًى وَمِنْ كُلِّ رَغْبَةٍ وَمِنْ كُلِّ قَصْدٍ مِنْ قَصُودِ الدُّنْيَا وَرَغْبَاتِهَا وَمُيُولِهَا، كَمَنْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَزَيَّنَتْ بِهِمُ الشَّاشَاتُ -ولا حول ولا قوَّة إلا بالله- وإنَّما كان همُّه أن يُقال فصيحٌ في كلامه أو حَسَنٌ في بيانه أو رفيعٌ في منطقهِ أو قديرٌ في عبارته...، إلى غير ذلك من الأشياء، ولا أدري أنا وأنت والحاضرون هنا وغيرنا، أن نكون ممَّن تشبَّت بالإخلاص أو فاتته، فإنَّ النِّيَّةَ سُرْعان ما تتبدَّل والقلبُ ما أكثر ما يتقلَّب، ولذلك كانت النِّيَّة من أيسر الأعمال وأصعبها وأعثرها على النَّفس، وأقرب ما تكون إلى الشَّيْطان مدخلًا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْبَلَاءِ وَيُعْرِضُهُ إِلَى الْفِتْنَةِ.
- وفي هذا حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «قَارِئُ الْقُرْآنِ» وفي رواية «يُؤْتَى بِهِ فَيُعَرَّفُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَيَعْرِفُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ وَأَقْرَأْتُهُ النَّاسَ، وَهَذَا يَقُولُ: بَذَلْتُ وَتَصَدَّقْتُ، وَهَذَا يَقُولُ: قَاتَلْتُ وَجَاهَدْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ -جلَّ وعلا: كَذَبْتَ إِنَّمَا قَرَأْتَ وَأَقْرَأْتَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، وَلِيُقَالَ مُتَصَدِّقٌ، وَلِيُقَالَ شَجَاعٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ يُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»^٢، يقول: وإنَّ أبا هريرة إذا رَوَى هذا الحديث شَهَقَ شَهَقَةً حَتَّى يُغَيَّ عَلَى، لَعَلَّمَهُ بِعَظَمِ هَذَا الْوَعِيدِ، وَكَثْرَةِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ.

- ولذلك الإمام الطيبي -رحمه الله تعالى- نقل عنه شارح كتاب التَّوْحِيدِ في باب الرِّياء، الشيخ سليمان بن عبد الله ومحمد بن عبد الوهاب، كَلَامًا عَظِيمًا فِي الرِّياء وَكَيْفَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَالَ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ أَعْبَى الشَّيْطَانُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ قِبَلِ الشَّهَوَاتِ وَمِنْ قِبَلِ الدُّنْيَا وَالْأَمْوَالِ، وَمِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ كَثِيرَةٍ التَّفَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى زَيْنَ لَهُمْ أَمْوَرًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَاسْتَجَرَّهُمْ، فَمَالُوا، فَضَاعُوا.

^٢ لفظ الحديث للترمذي (2382)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أَمَةٍ جَائِئَةٌ، فَأُولَئِكَ مِنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثُرَ الْمَالُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِوَأَنَاءِ اللَّيْلِ وَأَنَاءِ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: فَلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأُتَصَّدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌ وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فَمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أَمَرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: فَلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتَيْ فَقَالَ: يَا أبا هريرة: أَوَلَيْكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

^٢ مسند الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر (193/16).

وهذا قد حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم «أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ، الرِّيَاءَ»^٣.

• جاء في بعض الآثار أو في بعض الروايات: "أنه حتى إذا وفي الناس أعمالهم: يأتي أناس فيقول: اذهبوا إلى

من كنتم تراءون فيوفوكم أجوركم"^٤ وهل أحد غير الله -جلّ وعلا- يوفي الأجر في ذلك الموقف العظيم؟ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] ولذلك يقول الحسن البصري -رحمه الله تعالى: "لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا إِذَا قَالَ: قَالَ لِلَّهِ، وَإِذَا عَمِلَ: عَمِلَ لِلَّهِ"^٥، والله -جلّ وعلا- يقول في ذلك: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

والله يا أيها الإخوة، لو ما أمرنا الله -جلّ وعلا- بالبيان وتحملنا من القيام بهذه المهمة والأمانة، لكان أن يقعد الإنسان في بيته خيرًا له من أن يتعرض لهذه الفتنة، وليست فتنة أعظم من الظهور، فإنها قاسمة للظهور، ولذلك يقول إبراهيم بن أدهم كلمة عظيمة، يقول: "مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَرَادَ الشَّهْرَةَ"^٦.

• مَنْ مَنَّا يَسْلَمُ فِي هَذَا الْوَقْتِ، حِينَمَا يَتَكَاثَرُ النَّاسُ فَيَتَكَاثَرُونَ بِمَتَابِعِهِمْ، بِمَنْ يَتَلَقَّوْنَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ، بِمَنْ يَفْرَحُونَ بِهِمْ، بِمَنْ يَسْتَقْبِلُونَهُمْ فِي الْمَطَارَاتِ، بِمَنْ يُوجِّهُونَ إِلَيْهِمُ الدَّعَوَاتِ، بِمَنْ يُصَفِّقُ لَهُمُ النَّاسُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى الْإِنْسَانِ شَيْئًا، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89]، ولذلك قال أهل العلم في إتباع العالم: "ذِلَّةٌ لِلتَّابِعِ فِتْنَةٌ لِلْمَتَّبِعِ"^٧، ولم يزل الناس يُفتنون بهذا حتى يميلون عن إرادة وجه الله والقصد والإخلاص وطلب مرضاة الله -سبحانه وتعالى.

• وَلَمَّا كُنْتُ فِي إِقْبَالِ الطَّلَبِ وَبِدَايَةِ التَّحْصِيلِ، وَقَفْتُ عَلَى دَعَاءِ الْإِمَامِ أَحْمَد -رحمه الله تعالى- وَمِمَّا أَثَرُ مِنْ دَعَائِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَخْمِلْ ذِكْرِي"^٨ فَكُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، مَاذَا يَرِيدُ بِهَا؟ وَكَيْفَ يَرِيدُ إِخْمَالَ ذِكْرِهِ؟ وَالْإِنْسَانُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِفَ وَيُحْفَظَ عَنْهُ وَيُنْقَلَ عَنْهُ الْعِلْمُ وَتُؤَثَّرَ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَيَتَأَسَّى بِهِ النَّاسُ وَيُقْتَدَى بِهِ؟!

• فَلَمَّا مَرَّتْ بِنَا الْأَيَّامُ وَتَوَالَتْ عَلَيْنَا الْأَعْصَارُ، عَرَفَ الْإِنْسَانُ عِظَمَ مَا فِي الشَّهْرَةِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ، وَعِظَمَ مَا فِي الْإِنْكَفَاءِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ -جلّ جلاله- وَصُولَ الْخَيْرِ، أَوْصَلَهُ وَلَوْلَمْ يَعْرِفْكَ النَّاسُ، وَلَوْلَمْ يَحْفَظُوا لَكَ اسْمًا، وَلَوْلَمْ يُصَفِّقُوا لَكَ، وَلَوْلَمْ يَتَكَاثَرُوا عَلَيْكَ فِي مَسْجِدٍ وَلَا فِي دَرَسٍ، فَرَبَّمَا

^٣ صححه الألباني في صحيح التزغيب والتزهيب (35).

^٤ ذكر هذا الأثر عن الفضيل بن عياض: "ليتني أموت وأنا مخلط، أخاف أن أموت وأنا مراني، يدعى بي يوم القيامة على رءوس الخلائق، يا فضيل خذ أجرك من عملك له" (تاريخ دمشق لابن عساكر).

^٥ وروى عن أنس بن مالك مرفوعاً عند هناد في الزهد (435/2، رقم 854) بلفظ: «يؤتى بآدم يوم القيامة إلى الميزان، فيقول الله: يا ابن آدم أنا خير شريك ما عملت لي فأنا أحزبك به، وما عملت لغيري فاطلب ثوابه ممن عملت له» (شرح البخاري للسفيري ج 1 - ص 124).

^٦ مصنف ابن أبي شيبة

^٧ ذكر الحافظ الذهبي -رحمه الله- في "سير أعلام النبلاء" (439/13): "قال عبد الرحمن بن مهدي: عن طلحة، سمعت إبراهيم بن أدهم، يقول: ما صدق الله عبداً أحب الشُّهْرَةَ.

^٨ عن حبيب بن أبي ثابت قال: رأى ابن مسعود ناساً فجعلوا يمشون خلفه فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا فإنها ذلّةٌ للتابع فتنّةٌ للمتَّبِعِ. (مصنف ابن أبي شيبة/ 3632)

^٩ سير أعلام النبلاء (ص 207) قال: دخل على أحمد عهده، فقال: يا ابن أخي، أئش هذا الغم؟ وأئش هذا الحزن؟ فرفع رأسه، وقال: يا عم، طوبى لمن أحمل الله كثرته.

كانت كلمة واحدة يُخلص بها العبدُ لله -جلَّ وعلا- خيرٌ من مجالسٍ كثيرة لا حدَّ لها ولا إحصاء، لا يُوفَّق فيها العبدُ للإخلاص.

• والعجبُ أنَّها الإخوة أنَّ بابَ الدَّعوةِ إلى الله -سبحانه وتعالى- كان فيما مضى يحتفُّ به الرِّياءُ والسُّمعةُ ونحو ذلك، مع ما فيه من البلاء والتَّجَلُّدِ والشَّدةِ وكثرةِ الفتنةِ وقَلَّةِ الحالِ والفقرِ والفاقةِ، وربَّما يُعرضُ عنه النَّاسُ، وربَّما طُرِدَ، وربَّما ابتُلِيَ، ومع ذلك هو بابٌ من أبوابِ مداخلِ الشَّيطانِ في الانصرافِ عن الإخلاص، فكيف به في هذه الأزمنة التي ربَّما صارت بابًا من أبوابِ الجاهِ أو التَّكثُّرِ أو التَّكسُّبِ أو التَّعرضِ للمواطنِ وللوظائفِ وللوجهاتِ ولغيرها، أو مخالطةِ أصحابِ الأموالِ والثَّرواتِ وغيرها.

• فَإِنَّ الأَمْرَ أَشَدُّ فِي حَصولِ الفتنَةِ بالدَّعوةِ، فإذا انضمَّ إلى ذلك قَلَّةٌ فِي الصَّلاحِ، وضعفٌ فِي العبادةِ، وإعراضٌ أو نقصٌ كَثِيرٌ فِي الخلوَاتِ، فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، فِي ذِكْرِ اللَّهِ، فِي الْحَزْبِ مِنَ الْقُرْآنِ، فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ -جل جلاله- بأنواعِ العباداتِ، لم يكنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الانحرافِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ، وَلَا يَكَادُ يَسْلَمُ مَنْ إِلَّا مُسْلِمٌ، وَأُخْبِتَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَجْلِسُ حِجَّةً عَلَيْنَا لَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ -جلَّ وعلا- لَكِنْ لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ وَطَلَبُنَا وَرَجَائُنَا لِلَّهِ -جلَّ وعلا- أَنْ يَتَجَاوَزَ وَيَغْفِرَ، وَأَنْ يَعْفُوَ أَوْ أَنْ يَصْفَحَ، وَأَنْ يُصْلِحَ الْقَلْبَ وَأَنْ يَعْفُوَ عَنِ الْعَثْرَةِ، وَأَنْ يَمُحَّ الدَّلَّةَ، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنِ الْخَطِيئَةِ، وَإِلَّا لَكَانَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْهَالِكِينَ.

• وإذا جاءَ الْحَدِيثُ عَنِ الدَّعوةِ إِلَى اللَّهِ -جل جلاله- فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يُذَكِّرُ فِيهَا، وَأَعْظَمَ مَا يُذَكِّرُ فِيهَا، هُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ -جلَّ وعلا- ذَلِكَ أَنَّ الدَّعوةَ دَعْوَةً إِلَى اللَّهِ، **فَكَيْفَ لِشَخْصٍ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَهُوَ يَقْصِدُ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ؟** كَيْفَ لِشَخْصٍ يَأْخُذَ وَظِيفَةَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَانَتْ مَهْمَّتُهُمْ وَحْيَاتُهُمْ وَكُلُّ أَحْوَالِهِمْ دَعْوَةً إِلَى اللَّهِ -سبحانه وتعالى- وَهُوَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِهِ وَأَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنْ مَنَاجِيهِ، وَهُوَ إِنَّمَا هُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَجْمَعُ حَظُوظَ النَّفْسِ وَرَغْبَاتِهَا، مِنْ كَسْرَةِ خَبْزٍ أَوْ لَقْمَةِ عَيْشٍ أَوْ رَغْبَةٍ فِي جَاهٍ، أَوْ طَلَبٍ لَوْظِيفَةٍ أَوْ تَكْثُرٍ فِي مَجْتَمَعٍ، أَوْ طَلَبٍ تَرْفَعٍ عَلَى الْأَقْرَانِ، أَوْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَطَالِبِ وَالْأَغْرَاضِ.

فَكَمْ مِنَ الَّذِينَ لَمَّا انْصَرَفُوا عَنْهُمْ أَهْلُوهُمْ وَذَوَاهُمْ، لَمْ يَجِدُوا إِلَّا الدَّعوةَ إِلَى اللَّهِ -جلَّ وعلا- لَعَلَّهَا أَنْ تُعِيدَ لَهُمْ شَأْنًا أَوْ أَنْ تُظْهِرَ لَهُمْ قَدْرًا.

• قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٩ يَعْنِي: لَمْ يَجِدْ رِيحَهَا.

إِذَا تَقَرَّرَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ الطُّلَّابُ -طُلابُ الْعِلْمِ وَطَلَبَتِهِ- أَنْتُمْ الدُّعاةُ إِلَى اللَّهِ، الرَّاعِبُونَ إِلَى اللَّهِ، الْمَرْغَبُونَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَبَاعِدُونَ عَنْ سَبِيلِ الشَّيَاطِينِ، أَحْوَجَ مَا تَكُونُونَ إِلَى اسْتِحْضَارِ الْإِخْلَاصِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَفِي كُلِّ سَكْنَةٍ، وَفِي كُلِّ قَلِيلٍ وَفِي كُلِّ كَثِيرٍ، وَأَنْ يَتَفَقَّدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ قَبْلَ الْعَمَلِ فِي أَثْنَائِهِ وَبَعْدِهِ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا حَالَهُ فِي كُلِّ شَأْنِهِ، أَنْ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ.

❖ **ثَانِيًا: الْعِلْمُ فِي الدَّعوةِ إِلَى اللَّهِ -جلَّ وعلا-.**

^٩ مسند الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر (193/16).

- العلم هو أساسها وهو سبيلها، فمن لم يكن عالماً فإلى أي شيء يدعو؟ إلى الجهالات، إلى المحدثات، إلى البدع، إلى الشيطان، إلى الشرور.
- يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي مرّ بنا: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ»^{١٠}، فإنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو رسول رب العالمين بعث بالعلم داعياً إليه، فلم يدعُ إلى نفسه، ولم يبتدر بأرائه وحبائل أفكاره -صلوات ربي وسلامه عليه- إنّما كان وحي يوحى وسنة يتلقاها، فيؤدّي الأمانة فيها، فهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكان كذلك المتبعون لسنّته، المنتهجون نهجّه، الطّالبون لهداية العباد إلى دينه وشرعته.
- ولذلك تعرفون تبويب البخاري "باب العلم قبل القول والعمل" وذكر الآية في قول الله -جلّ وعلا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: 19] قال شراح الحديث: فدلّ ذلك على أنّ العلم سابق للقول والعمل، وأنّه شرط لقبولهما، فإنّه لا يتأتى للإنسان قولٌ صحيحٌ وعملٌ سديدٌ إلّا بالعلم.
- ولذلك جاء في الآية التي سبقت وذكرناها في المقوم الأول من مقومات الدعوة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108] والبصيرة من البصر، وذلك أنّ البصر يحصل به رؤية الأجسام والأشياء، لئلا يقع فيها الإنسان ويتدهده، فكذلك البصيرة للقلب، هي تنجلي بها الجهالات ويفتح للإنسان باب العلم والإنارات، فتفتح له آفاق الهدى والاستقامة والبيان والمعرفة.
- ولهذا لن يفلح شخص دخل في الدعوة على غير علم وبصيرة ، ولذلك جاء في دلالات الأحاديث ما يدلّ على هذا الشأن ويؤكد عليه، وكذا في دلالات الله -سبحانه وتعالى- لا ينفك كثير من الأحاديث الدالة على هذا والداعية إليه.
- «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^{١١} فلا بدّ أن يكون سالكاً طريق العلم، طالباً له، مبتغياً لسبيله، غير ملتفتٍ يميناً ولا شمالاً.
- يقول الحسن البصري -وهي كلمة أيضاً جاءت عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى- أنه قال: "وَالْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُ" ، وتأملوا كلمة الحسن، يقول -رحمه الله تعالى: "الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُ" ، فاطلبوا العلم طلباً لا تضرّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا تضرّوا بالعلم، فإنّ قوماً طلبوا العبادة، وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيا فيهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولوّ طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا"^{١٢} يشير إلى الخوارج، فإنّهم كانوا أصحاب عبادة، وأصحاب صلاة، وأصحاب قيام ليل، وأصحاب صيام، ومع ذلك هم الذين قتلوا عثمان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- وهم الذين فتحوا باب الفتنة وانفتحت إلى آخر هذه الدنيا.

^{١٠} البخاري (78)، ومسلم

^{١١} مسند أحمد (8115)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (183).

^{١٢} جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (621)

• إذا قلنا من أنه لابد من العلم في باب الدَّعْوَةِ إلى الله -جل جلاله- فهذا أمرٌ ظاهرٌ بيّن، ولما بعث النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- معادًا إلى اليمن، قال: «كَيْفَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قال: «أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ»، قال: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ»، قال: «فَسُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قال: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟»، قال: «أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو»^{١٣}.

• لو نظرنا في قول النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- «يَلْغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^{١٤} هذا من الأحاديث التي رواها البخاري في صحيحه، وهو من أهم الأحاديث الدالة على أهمية العلم في الدَّعْوَةِ إلى الله -سبحانه وتعالى- لم يقل النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- مَنْ حَفِظَ آيَةَ فَلْيَكُنْ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ، وإنما قال: «يَلْغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

• إِذَنْ يُبَلِّغُ الْإِنْسَانَ بِقَدْرِ مَا عَلِمَ، بِقَدْرِ مَا حَفِظَ، بِقَدْرِ مَا تَعَلَّمَ، بِقَدْرِ مَا فَهِمَ، لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ ذَلِكَ، ويدلُّ على هذا دلالة جلية واضحة الحديث الآخر، أن النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»^{١٥}.

أَوَّلُ الْحَدِيثِ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا» هذا يدلُّ على ماذا؟

✓ هل يدل على أن الإنسان يتخبط بالجهالات؟

✓ هل يدل على أن الإنسان يدخل فيما لا يحسن؟

✓ هل يدل على أن الإنسان يقول ما لا يعلم؟

لا، وإنما هو أداء لما وعى، أداء لما حفظ، أداء لما عرف «فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى»^{١٦}، وفي رواية «فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ»^{١٧}.

• إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَخُوضُونَ غِمَارَ الدَّعْوَةِ مِنْ أَهْلِ الْجَهَالَاتِ وَعَدَمِ التَّرِثِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّزُودِ مِنْهُ يَسْتَدْتُونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ «يَلْغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» وهذا ليس فيه مُسْتَمْسَكٌ لَهُمْ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وذلك لأنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «يَلْغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

الحديث فيه دلالة على أن الإنسان يُبَلِّغُ ما حفظ، آية أو أكثر، لكن ليس فيه أن مَنْ حفظ آية جاز أن يقول في كلِّ ميدانٍ، أو يتكلَّم في كلِّ سبيلٍ، خلافًا للحال الذي يفعلونه، بمجرد أن يخرج شخصٌ من محلِّ بلاءٍ وفتنةٍ وشرٍّ، حتى يذهبوا به ويعرضوه للنَّاسِ، يتكلَّم ويدعوا ويعظ، وهذا خللٌ كبير وخطأ ظاهرٌ بيّن عظيم، فإنَّما يُبَلِّغُ الْإِنْسَانُ ما عرف وينقل ما حفظ.

هل من لازم الدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- أن يكون الإنسان عالمًا؟ أو أن الدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- تتجزأ بحسب العلم؟ فمن علم قليلًا دعا قليلًا، ومن علم أكثر دعا بحسب ما علم أو حتى يكون الإنسان عالمًا؟

^{١٣} مسند أحمد (21527).

^{١٤} صحيح البخاري (3461).

^{١٥} مسند أحمد (16388).

^{١٦} سنن الترمذي (2657)، وصححه الألباني.

^{١٧} سنن أبي داود (3660).

- من حيث الأصل فإنَّ الدَّعْوَةَ إلى الله -جلَّ وعلا- هي وظيفة عظيمة، فلا بدَّ أن يكون المتصدّي لها - والمتصدّي هو من تكون هذه وظيفته، كما كانت وظيفة الأنبياء والمرسلين- فلا شك أنَّه لابدَّ أن يكونَ على قدرٍ من العلمِ وافر، وأن يُحصِلَ درجةً مُعيَّنة لها على ما هو فيه، وإلا يوشك أن يذللَّ في حالٍ من الأحوال.
- ولا نَشترط كمال العلمِ حتى لا يفضي ذلك إلى أن لا يتصدّى لها إلا القلَّةُ القليلة من النَّاسِ، لكن الأصل أنَّ مَنْ يتصدّى لهذه الوظيفة ويتفرَّغ لها، أن يكون على علمٍ وبصيرةٍ في أقلِّ الأمور بأصولِ الشَّرع، وبما يتعلَّق بما يحتاج إليه عموم النَّاسِ، وأن يكون عالمًا بفروض الأعيان وما يحتفُّ بها ممَّا تَشتهِر حاجة النَّاسِ إليه أيضًا من فروض الكفايات؛ ليكون مُستعدًّا لما يعرض للنَّاسِ من استفتاءٍ ولما يتجدَّد للنَّاسِ من سؤَالٍ ولما يقع لهم من إشكالٍ ولما ينتابهم من أمرٍ في زَوَجاتِهِم أو طلاقٍ أو بيعٍ أو شراءٍ أو غير ذلك، إذن هذا من جهة.
- من جهةٍ أخرى نقول: يمكن أن مَنْ كان ذا علمٍ أقلَّ أن يكون له مُشاركة في الدَّعْوَةِ، لكن حذاري أن يتجاوز شيئًا لم يعلمه، حذاري أن يقول على الله ما لا يُحسِّنه وما لا يَعلمه، والله الله أن يستجريه الشَّيطانُ؛ فيتجرَّأ على الحدود والحرَمات، وإنَّ كثيرًا من البلاء الذي وَقَعْنَا فيه في هذه الأزمنة، أنَّه بدأ أناسٌ بالدَّعْوَةِ ظانِّين أنَّ عندهم شيء وليس ثَمَّ شيء عندهم، حتى إذا نصَّبَهُم النَّاسُ يظنُّون بهم الخير ويظنُّون بهم العلم، وهم ليس عندهم علم، ولم يرجعوا ليعرفوا قدرهم وإنَّما تقدَّموا، فسُئِلُوا فأفتوا، فضلُّوا وأضلُّوا، وما جهالاتٌ كثيرٌ من أهل البدع والأهواء والمتصوفة إلا من هذا، وما ضلالاتٌ كثيرٌ من أعمال الإرهاب وإراقة الدِّماء والتَّسلُّط على المسلمين والمعصومين من أهل الكتاب وغيرهم إلا من هذا الباب.
- قرأ شخصٌ كتابًا أو حفظ القرآن أو تخرَّج من معهدٍ علميٍّ أو دراسةٍ جامعيَّةٍ دينيَّةٍ، أو جلس بين يدي شيخٍ جُلوسًا قليلًا أو أخذَ نَتَقًا من هنا وهناك عبر هذه المواقع وعبر هذه المجالس، فظنَّ أنَّه حاز العلم؛ فتكلَّم وأفتى وأعجبه حلاوة كلامه، وأدخلَ إليه الشَّيطانَ العجب والهوى، حتى ضلَّ وأضلَّ. فإذا من كان ذا علمٍ قليل، فنقول: إنَّما يَسَعُهُ أن يقول ما علم.
- لكن هنا مسألة كثيرة الحصول: وهو أنَّ أناسًا ربَّما يحفظوا حديثًا أو يعرفوا آيةً أو يسمعون مسألةً، فيدعون النَّاسَ إليها، على حين أنَّه إنَّما يعرف رأس المسألة، أمَّا قُيُودُها وما يتعلَّق ببعض اعتباراتها وما فيها من دقائقها لا يحسنها، فربَّما يأتي بأصل المسألة ثم ينقضها، وربَّما أتى بالمسألة وما يعارضها، وربَّما أتى بالمسألة على غير وجهها، فلأجل ذلك حتى إذا قلنا إنَّ العلم يتجرَّأ، فلا بد للإنسان أن يكونَ حافظًا لهذه المسألة على وجه دقيق، وأن لا ينقلَ مسألةً إلى مسألةٍ أو حالًا إلى حالٍ أخرى، فإذا اشتبه عليه فالأصل أن يسكت، وأن لا يتكلَّم، وأن لا يدخل في هذا الميدان، فيكون سببًا للبلاء والجهل والضَّلال والإضلال.
- أعجب شيء رأيته خلالَ دراستي أنَّي أنا وغيري كثيرًا ما نذكر عن الصَّحابة أنَّهم يقولون: "مَنْ تكلَّم فيما لا يَعْلَم فقد أصيبَ مقاتله، لا أعلم نصف العلم" ^{١٨}، إلى غير ذلك من الأشياء، تورَّعُهم عن الفتاوى، وتَدَأْفُعُهم للفتيا، ونَقَلَ ابنُ القيم وغيره في إعلام الموقعين من هذه الروايات والآثار.

^{١٨} جاء في الآداب الشرعية عن ابن مفلح، قال ابنُ عَسَاسٍ: رضيَ اللهُ عَنْهُمَا إِذَا تَرَكَ الْعَالِمُ لَا أَذْرِي أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ، وَقَالَ مَالِكٌ: كَانَ يُقَالُ إِذَا أَغْفَلَ الْعَالِمُ لَا أَذْرِي أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ وَقَالَ أَيْضًا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَسَيِّدَ الْعَالَمِينَ يُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ فَلَا يُجِيبُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْوُحْيُ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: لَا أَذْرِي نِصْفَ الْعِلْمِ

- ثم إذا جاء الميدان إلى الواقع، تجد أنَّ كثيرًا مِنَّا أسرع ما يكونُ إلى القولِ في المسألة، وأسهل ما يكونُ عليه الإفتاء، وأهون ما يكونُ عليه التَّصدي لها، وهذا من استجراء الشَّيطان لنا، فينبغي للإنسان أن يتَّوَقَّى، فقد يقول المسألة على سبيلِ المَدَارَسَةِ، وقد يقول المسألة على سبيلِ التَّبْيِينِ والتَّعْلِيمِ؛ لأنَّه حفظها على وجه، لكن بابَ الفتيا والتَّصَدُّرِ وتقريرِ المسائلِ خاصَّةً إذا كانت تلك من المسائل المشكِلة أو من مسائل العموم، أو ممَّا يترتَّب عليه مفسد كثيرة، فإنَّه أحرى بالإنسان أن يُحجِّم، أحرى بالإنسان أن لا يَسْتَعِجِل.
- وممَّا يحفظ في هذا وهي مأثورة عظيمة عن الإمام ابن رجب -رحمه الله تعالى- وهي تتعلَّق بالأمرين معًا، سواءً بباب العلم أو بباب الإخلاص، يقولون: إنَّ الإمام ابن رجب -رحمه الله- كان لا يُعرف في وقته كثيرًا، وإنَّما كان ربَّما يكون في مجلس العلم فيذكر المسألة حتى يستوعِب أطرافًا لها كثيرة ودقائق لها عجيبة، لا يكاد يُحسن أحدٌ ما يحسن، يقولون: ثم ينتقل إلى بعضِ مجالس النَّاسِ العامَّة، فَيُعَرِّضُ للمسألة فلا ينطق ببنتِ شفة، فيعجب الطُّلاب ويقولون: يتكلَّم مَنْ هو دونه! وظننا أن لو تكلم شيخنا لكان أتم من كلامهم وأحسن، يقولون: فإذا خرجنا من ذلك المجلس، سئل الشيخ الإمام ابن رجب: لِمَ لَمْ تتكلَّم؟ قال: **"إن هذه مجالس ما أريد بها وجه الله"**.
- يعني أحيانًا هذا العلم إنما هو للتِّجاري والتَّنَدافع وإظهار النَّفس وأنَّه غلب فلانًا بحجته، أو أنَّه أفحم فلانًا في مسألته، فتأمَّل كيف أنَّ أهل العلم الرَّاسخين لا يأتون العلم إلا على وجهه، ولا يأتونه إلا بحقِّه، فكيف بمن يتكلَّم ولم يُعرف حقَّ العلم؟ وكيف بمن يتكلَّم ولم يُحط بالمسألة على وجهها وعلى تمامها وبيانها.
- هذان الأمران أمران عظيمان، ولو أنَّنا أيُّها الإخوة استفرغنا الوسع واستجمعنا كل المجالس القادمة، في التَّأكيد على هذا الأمر لكثرة المخالفين فيه، الذين يتكلَّمون بغير علمٍ، ولعظم ما يتعلَّق بذلك من دعوة النَّاسِ إلى الجهل، وكما قلنا: الرَّجُل يدعو وهو جاهل، قال: "نعم حتى يضل ويضل الناس".
- وأيضًا لما يكون فيه من التَّلَبيس على النَّاسِ والبلاء الكثير، كلُّ ذلك يُحوِّجنا إلى أن نُحجِّم، وما رأيناه من كثير من الفِرَق ومن دخلوا في الميادين الدَّعويَّة على غير هُدًى وعلمٍ، حتى قلبوا الشَّريعة رأسًا على عقبٍ، ودعوا النَّاسَ إلى ضلالٍ عظيمٍ، فزَيَّنوا الشِّرْكَ وزينوا البدع، وحتى سَوَّقُوا للمقالات الضَّالة التي ربَّما تصل إلى ما يُخرج من الملة ويفارق به الإنسان الإسلام، وكلُّ ذلك إنَّما مَبْدَأُه عدم العلم وعدم التَّوَقِّي في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

